أيام .. ويموت الرجل !

قصة بقلم جان الكسان

الى يوسف العظمة .. بطل ميسلون، الفداء الاول في تاريخ بطولتنا الحديث

الفتيلة لا تزال منذ ساعة تمط بلسانها لتلحس بلور زجاجة القنديل بلعابها الجاف الاسود فتتراقص الخيالات في الغرفة ، ويسقط النور الباهت من القنديل على الجدران باعياء..

نفس الحكاية .. يعيدها .. انا ادري انه يستشعر سعادة عظيمة وهو يرويها .. انه يريد ان ينداح في دوامة تدور به مع اخيلة وذكر واحداث مرت منذ ثلاثين عاما ..

وقبل ان تنفرج شفتاه عرفت انه سيقول : « ذلك اليوم ، كانت رائحة التراب قوية في انوفنا .. كنا نشتمها بعمق ونحن نصد السيل الضخم الذي بصقه البحر في شواطيء لبنان ليدب كأقوام البرابرة الى ارضنا ... كان عبد الغني قزما ـ رحمة الله عليه ـ الى جانبي .. انت لا تعرفه .. كان جسمه ضئيلا وعيناه رطبتين بلون الوحل .. ولكنه كان بطلا .. اصيب باكثر من رصاصة في اجزاء متفرقة من جسده وهو لا يزال قابضا على البندقية « العصملية » يحشو بها المشط تلو المشط ، حتى تراخت يداه .. وسقط ..

« داسه جندي فرنسي يا ولدي متعمدا ... قتلت انا ذلك الجندي.. ما كان ذلك الفرنسي في عمله جنديا شريفا .. تمنيت انذاك لو كان له اكثر من روح لاستلها من بين جنبيه اكثر من مرة .. الشهداء لا يداسون بالحذاء .. هذا لا يعرفه هؤلاء الفرنسيون الانذال اصحاب القلوب الغليظة ..

« وكأنني في حلم .. تبلورت امام عيني ، اعمال جسام ... كان الغبار يتصاعد ورائحة التراب قوية في انوفنا .. ورجالنا شبه العزل يواجهون الحديد والنار ببطولة رائعة .. لم تكن تلك هي المرة الاولى التي اشتم فيها رائحة تراب ارضنا بعمق .. كنت كثيرا ما اتمدد في الحقل تحت شجرة الزيتون ، الى جانب الساقية الغربية ، ويكون انفي قريبا جدا من التراب ، فاروح اشتم رائحته بعمق .. احب رائحة التراب يا ولدي .. تراب ارضنا الذي سقيناه بدموعنا ودمائنا وزرعنا فيه الحبة المباركة منذ القديم ..

« كنا نقاتل بايمان ، ويصيح يوسف : الى الامام يا شباب ...

« يا الله .. لا استطيع ان اتصور كل شيء ... الم اقل لك ان تلك الساعات مرت كحلم !..» .

★

ويسكت الرجل الذي سيموت بعد ايام !..

اليوم فقط عرفت هذا .. اتيناه بالطبيب من المدينة . بعنا نصف غلال الزيتون ، وجلبنا له اكثر من طبيب .. قرحة في المعدة ، وتضخم في الرئتين وشلل في القدمين ووهن عظيم في القلب ..

قال الطبيب اليوم : قد يقف قلبه فجاة ، ويموت ..

قالها ببساطة .. وصدقه الجميع .. فكلام الطبيب في قريتنا كالاية المنزلة ..

وعرف الطبيب انني شاب مثقف فقال لي : الرجل يسير حثيثا الى نهايته .. كم هو عمره ؟..

عجبت للسؤال يعيده الطبيب لخامس مرة !..

ـ ثمانون عاما ....

ـ لا فائدة .. تشجع يا سيد .. كلنا على هذه الطريق ... ـ ـ

لا اعرف لماذا شعرت برغبة ملحة لان اصفع الطبيب .. في الزيارات السابقة كان يمنينا بآمال عريضة .. كان يقول : انه في حالة تعب وبحاجة الى الراحة والعلاج..

وامنا الراحة ، واشترينا العلاج .. بعنا النصف الاخر من غلال الزيتون واشترينا علبا كثيرة ملونة من صيدليات المدينة ولكن دون جدوى .

اليوم ادركت ان عين الطبيب الخبيرة ، ادركت انه لم يبق لدينا شيء بعد هذا نبيعه فقال : الرجل يسير حثيثا الى النهاية ، فقد يقف قلبه فجاة ويموت .

وغابت سيارة الطبيب خلف اشجار الحور ، وعدت الى الغرفة والفتيلة لا تزال منذ ساعة تمط بلسانها الى اعلى الزجاجة بين لحظة واخرى وتلحس باورها بلعابها الجاف الاسود فتتراقص الخيالات في الغرفة ويسقط النور الباهت من القنديل على الجدران باعياء..

نفس الحكاية يعيدها .. انا ادري انه يستشعر سعادة عظيمة وهو يرويها .. انه يريد ان ينداح في دوامة تدور به مع اخيلة وذكر واحداث مرت منذ ثلاثين عاما .. وقبل ان تنفرج شفتاه عرفت انه سيقول : « ذلك اليوم .. كانت رائحة التراب قوية في انوفنا .. كنا ...

« يا الله .. لااستطيع ان اتصور كل شيء ... الم اقل لك ان تلك الساعات مرة كحلم ؟..

ويسكت .. فيسود جو الغرفة صمت ثقيل ، رهيب ، وافتش عن كلمة اقولها فلا يفتح علي ... وانظر الى عيني الرجل المسجى امامي فالحظ شبح ابتسامة صفراء يرتسم على وجهه واحس بجسدي يتقلص ويتقلص حتى يصبح ضئيلا .. تافها .. بلا قيمة .. ولا كيان .

الرجل يدري انه سيموت .. ومع ذلك يبتسم .. يتحدى الموت بهذه الابتسامة الشاحبة ... انا لست مثله .. ولا مثل عبد الغني قزما لست بطلا بحال ... انا اخاف الموت .. ولا استطيع ان اتصور نفسي كعبد الغني ، جسدي يثقبه الرصاص وانا احشو بندقيتي بالمشط تلو المشط ...

سيموت هذا الرجل .. ايام ويموت .. يا لتفاهة التعبير .. هكذا يقرر طبيب جشع نهاية انسان حافلة بجهاد عظيم : ولد والظلم العثماني يجلد ابناء شعبه بسياط اغلظ من قلوب اصحابها ... وشب ليستقبل بجسده رصاص الطوفان الفرنسي في ميسلون ، وها هو يختتم حياته ببسمة رضى ترتسم على وجهه الشاحب الذي كثيرا ما تصبب عليه العرق الغزير والرجل يصارع قسوة الارض وهو يقلب ترابها ليزرع الحبوب

والاغراس ..

لا اريد ان اتصور الان ان هذا الرجل سيموت بعد ايام .. لا اريد ان اتصور ذلك .. انا لا احب الكفر ، لا احب ان اخالف ارادة الله الذي يحيي ويميت ، ولكنيلا اريد من الطبيب ان يكون هو الذي يحدد ساعة الموت .

ان شيئا كالحمى يدور في رأسي وانا انظر الى الرجل المسجى امامي على الفراش .. حتى هذا القنديل اللعين يسخر مني بتراقص ذبالته .. هل انا اهذي ام اتفلسف ام اكفر ؟.. انني انداح بدوري في دوامة عنيفة تتنابني معها مثل هذا الدوار الحار الذي يكاد ان يدفع في رأسي انفجارا.

كيف ؟.. لا استطيع ان اتصور ان هذا الرجل الذي ارفعه على ساعدي بحنان لاجرعه الدواء سأضعه بنفسي بعد ايام في حفرة عميقة باردة .. في ساعة من الزمن سأدفن حياة انسان حافلة .. حياة بطل.. سيقف اهل القرية حولي معزين .. سينثرون امامي سبلا من الجمل التقليدية التي تقال في مناسبة كهذه .. وسأهز لهم برأسي شاكرا ..

كل الناس يموتون .. كل حي ينتهي الى هذا المصير ، فلماذا كل هذا التهيب من موت الرجل .. انا اعجز عن الجواب الان ... ذهني مشوش. وبرأسي دوار كالحمى .. والاخيلة تتراقص على جدران الغرفة مع اهتزاز ذبالة القنديل ، ووجه الرجل يحدق في بهدوء ... انني اتصور الان الطبيب يقف قرب فراش المريض ويمسك بيده برهة ، ثم يفلتها ويلتفت الي ليدلي بقراره الحازم : ايام .. ويموت الرجل .

لمن سأقرأ الجريدة بعد اليوم ..؟ من سيجلس قرب الموقد في ليالي الشتاء يروي لي حكاية السيل الضخم الذي بصقه البحر في شواطيءلبنان ليدب كاقوام البرابرة الى ارضنا ... وعبد الغني قزما ، صاحب الجسم الضئيل والعينين الرطبتين اللتين بلون الوحل ، من سيروي لي قصة الرصاصات التي اخترقت جسده وهو قابض على بندقيته يحارب .

سيكون هناك فراغ كبير في ايامي المقبلة .. لن اذهب صباحا الى الغرفة الغربية لالقي على الرجل تحية الصباح بعد ان يؤدي الصلاة ... سأشرب القهوة لوحدي ، وسأخرج الى الحقل بخمول .. لن اشتغل سيعمل الفلاحون وحدهم في الحقل ، وساكتفي بتعهد الارض التي رعاها الرجل بتعب العمر .. وسأعود في المساء الى غرفتي لاقرأ حتى انام .. انه روتين بليد لا استطيع ان احياه .. انه سيحقن ايامي باشياء قاسية تتعب ذهني وتحطم اعصابي..صحيح انني شاب واع في الرابعة والعشرين من العمر ، واحمل شهادة تثبت انني شاحب مثقف .. ولكنني اخاف الفراغ الذي سيخلفه هذا الرجل ... كم اتمنى لو كنت بطلا مثله ... انا لست كذلك .. ولا استطيع ان اكون .. انني اضعف الان من اي انسان .. والرجل لا يعرف حقيقة مشاعري ، اذن لكان سخر من ضعفي بابتسامته الهادئة التي تتحدى الموت

ايام .. ويموت الرجل ..

لماذا قالها الطبيب ؟.. لماذا لم يقل ان الاعمار بيد الله ... لماذا اطلق الحكم الاخير ؟.. لماذا ؟..

ويرفع الرجل المسجى رأسه قليلا .. وترتسم على وجهه الشاحب غضبة قاسية وهو يقول : ماذا ... هل تبكي ؟.. لو كانت امك المرحومة هي التي تبكي لعذرتها ... لانها امرأة .. اما انت فرجل .. والرجل لا يبكي يا احمد ...

*

وتمضي ساعة ، فينام الرجل ..

ويتحول الدوار في راسي الى خدر لذيذ وتنتقل اجفاني فاذا بي مع عجلة تدور وتدور : سنة ... ثلاث .. خمس ... عشر .. واذا بارادة الله فوق تقرير الطبيب .. والرجل حي يسعى ويصلي ويجلس قرب الموقد في ليالي الشتاء يعلمني درسا جديدا في اعمال الفلاحة والغرس والبذار التي اقوم بها بنفسي في حقلنا .. وعندما ينتهي من القاء درسه افتح الجريدة واروح اقرأ له فيها اخبار الوطن والدنيا ... واطوي الجريدة فينبري ولدي الصغير الذي تخطى عامه الثامن يسأل جده ان يقص عليه حكاية .. فيروح الرجل الشيخ ذو الاعوام التي بلغ عددها التسعين يروي الحكاية الخالدة :

« ذلك اليوم .. كانت رائحة التراب قوية في انوفنا .. »

دمشق — جان الكسان